الدلالة والمقام و دورهما في تماسك الخطاب الشعري
قصيدة "الحنين " للشاعر إبراهيم ناجي أنموذجا

أ. بوبكر نصبة
جامعة الوادي

الملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد الوظيفة الأساس لمعياري الدلالة و المقام باعتبارهما من أهم مقوّمات التحليل النّصي في مجال اللسانيات المعاصرة ، و اسيما في النظرية التداولية .
و عليه يتم تأويل الخطابات الأدبية ،و خاصة الشعرية منها و الوصول إلى بنيتها العميقة . كما اتضح ذلك في قصيدة " الحنين " للشاعر إبراهيم ناجي التي اتخذت طابعا رمزيا مليئا بالدلالات الإيحائية التي تعبر عن النزعة الإنسانية للشاعر ، حيث يستشفها القارئ من خلال السياق المقامي .

Résumé :

Dans cette étude de la linguistique textuelle il m'a semblé important d'expliquer le rôle de certains concepts clés tel que : La cohérence qui est un moyen de la textualité , elle s'accorde avec le sens (la structure profonde) . Le contexte situationnel qui est un élément principale dans la théorie pragmatique .

Le lecteur idéal utilise le sens et le contexte pour faire l'interprétation dans l'analyse de discours littéraire comme la poésie " EL –HANIN " du BRAHIM NADJI qui est plein des symboles .

تمهيد :

لقد هيمنت سمة " البنوية "على اللسانيات في النصف الأول من القرن العشرين انطلاقا من الفكرة التي بذرها العالم السويسري " **فرديناند دي سوسير**" (1857_1913)، و المتمثلة في دراسة اللغة في ذاتها و لذاتها. أي النظر إلى اللغة على أنّها نظام وصفي مكوّن من أربعة مستويات(الصوتي، الصرفي، النحوي، الدلالي و المعجمي) مترابطة فيما بينها بعيدا عن المؤثرات الخارجية بمختلف أنواعها: التاريخية، الاجتماعية، النفسية..... .

وتكرّست هذه الرؤية عند اللسانيين الذين جاءوا بعده و خاصة أعلام اللسانيات الوظيفية مثل: نيكولاي تروبوتسكوي، رومان جاكبسون، أندري مارتيني، إميل بنفنيست، لوسيان تنيير..... . حيث حاولوا الاهتمام بالمكوّن الدلالي ، واعتبروا اللغة نظاما من الوظائف بدءا من الفونيم وصولا إلى التركيب و ما يتضمنه من مورفيمات . لكن بقي المنهج الوصفي طاغيا على أفكارهم . وما إن حلّ النصف الثاني من القرن العشرين حتى أتى " **تشومسكي** " بنظريته التوليدية التحويلية وذلك سنة 1957 حين صدر كتابه المعروف" بالبنى التركيبية " معلنا عن ميلاد المنهج التفسيري (العقلي) الذي يتلاءم مع المكوّن الدلالي بطريقة موضوعية أكثر من المنهج الوصفي ذي النزعة الشكلية .

واعتبرت هذه النظرية اللسانية الحديثة لتشومسكي رافدا للنظرية التداولية التي ظهرت فيما بعد ، وجمعت بين بعدين لسانيين هامين هما: الدلالة، و السياق المقامي

1_ لسانيات النص ومعايير النصّية :

أ_ لسانيات النص :

هي فرع من فروع اللسانيات تعنى بدراسة النّص (الخطاب) باعتباره الوحدة الكبرى التحليل بدلا من حدّ الجملة الذي ارتبطت به اللسانيات البنوية خصوصا، وذلك من حيث حدّه وتماسكه و محتواه الإبلاغي [1] .

وعليه، فموضوع لسانيات النّص (علم اللغة النّصي) هو الترابط النّصي بشقّيه : الشكلي (الاتساق) و الدلالي (الانسجام) مضافا إليهما الجانب التداولي الذي يركّز على استعمال اللغة في التواصل و التبليغ انطلاقا من فكرة المقام [2] .

كما ارتبط هذا المجال المعرفي الجديد بعلوم مختلفة : النحو، البلاغة، الفلسفة، المنطق، علم النفس، علم الاجتماع، النقد .... . أي أنّه يركّز على أساس التداخل بين مختلف العلوم [3] .

وبذلك فهو تجاوز مبدأ المحايثة [4] المعروف عند البنويين و خاصّة دي سوسير.

ورغم هذا التعارض الموجود بين علم اللغة النّصي و عام اللغة البنوي إلاّ أنّ هذا الأخير يعد ركيزة رئيسية لسابقة إذ إنّه لا يمكن التطرق إلى الدلالات العميقة و ربطها بالسياق المقامي دون البدء بدراسة البنية السطحية .

ب__ معايير النّصية :

إنّ النّصية هي بمثابة الشروط التي إذا توفرت في ملفوظ ما عدّ نصا [5] .

فهذه الشروط هي معايير تأسيسية للنّص، وتتمثل في [6] :

ب1 _ الاتساق : وهو ترابط النّص على مستوى البنية السطحية وذلك بفضل وسائل متعدّدة أهمها :

_الإحالة : سواء كانت مقامية أو نصّية (قبلية أو بعدية) انطلاقا من المحيلات النّحوية المتنوعة (الضمائر، أسماء الإشارة، الاسم الموصول.....) .

_ الاستبدال : سواء كان اسميا أو فعليا أو ما يشبه الجملة .

_ الحذف : وهو متعلق أيضا بالاسم و الفعل و الجملة أو ما شابهها .

_ الوصل : ويتمثل في أدوات الربط النحوية المعروفة كحروف العطف مثلا التي تارة تدل على الجمع أو التخيير..... .

_ الربط المعجمي : الذي يظهر تعالق الوحدات المعجمية عن طريق التكرار(تام، جزئي، بالمرادف، نحوي....) أو التضام (ترادف، تضاد، جزء من الكل، اشتمال.....).

ب2_ الانسجام : هو ترابط على مستوى البنية العميقة، ويطلق عليه أيضا بالترابط الفكري أو الدلالي ، ويعتمد على التأويل من طرف القارئ النموذجي لإظهار أكبر عدد ممكن من العلاقات الخفية داخل النّص .

ب3 _ القصدية : وهي هدف المبدع من إنتاجه لنص ما .

ب4 _ المقبولية : وهي مدى تقبل نص المبدع من طرف القارئ .

ب5 _ المقامية : وهي السياق الخارجي الذي أدى إلى إنتاج النّص، فكل نص مرتبط بمقام معين (المناسبة).

ب6_ الإعلامية : أي أنّ كل نص يحتوي على معلومات تكون متوقعة عند الكاتب و القارئ .

ب7_ التّناص : فكل نص يحتوي على ملفوظات متعالقة فيما بينها كتعالق السؤال بالجواب ، والمفسّر و المفسّر..... كما أنّ النّص لا يولد من عدم، إنّما يتم إنتاجه انطلاقا من تداخل أفكاره مع نصوص أخرى .

ورغم اختلاف هذه المعايير النّصية إلاّ أنّها تتداخل في ما بينها، و تشكل مجتمعة ما يعرف بالنظرية النّصية و على وجه الخصوص

النظرية التداولية . إذ إنّها تشتمل على الجانب البنوي و الدلالي و المقامي للنّص .

وبما أنّ الجديد المتعلق باللسانيات التداولية يتمحور حول الدلالة و المقام، فسوف يتم التركيز عليهما و إظهار دورهما في التماسك النّصي للخطاب الشعري فيما بعد .

2- التماسك الدلالي :

تعد الدلالة من أهم مستويات الدرس اللساني، فهي مرتبطة بالجانب الصوتي و الصرفي و النحوي للغة، ورغم أنّها كانت عنصرا ثانويا عند البنويين إلا أنّها لقيت نفسا جديدا عند تشومسكي و التداوليين فيما بعد، و عليه يمكن تقسيمها إلى [7]

_ دلالة مباشرة (سطحية) : وهي متعلقة بالمعنى الحرفي للمكون اللغوي . (الدلالة عند البنويين)

_ دلالة إيحائية (عميقة) : وهي متعلقة بالمعنى الاستعمالي للمكون اللغوي ، و الذي يستشف من خلال المقام .

فهذا النمط من الدلالة مرتبط بالجانب التواصلي للغة، وكذلك الجانب التأويلي، وهو الذي يحقق التماسك الدلالي للنّص بالدّرجة الأولى . (الدلالة عند التداوليين)

أ_ مفهومه :

لقد تعددت المفاهيم المتعلقة بالتماسك الدلالي وهذا راجع إلى اختلاف مرجعية كل علم من أعلام اللسانيات النصّية، إضافة إلى تداخل هذا العلم مع علوم أخرى ، ومع ذلك فهي تصب في منبع واحد ، ومن أهمها :

_ يرى العالم الأمريكي " روبرت دي بوجراند " أنّ التماسك الدلالي آلية من آليات الترابط النّصي تتطلب من الإجراءات ما تتنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي و استرجاعه . [8]

وبناء على ذلك ، فالترابط الدلالي للنّص هو الذي يظهر الدور الذهني من خلال تنشيط عمل الذاكرة ، و تفعيل أدائها في ربط المفاهيم واستدعائها في سياقات متشابهة ، وبناء الأفكار على بعضها البعض طلبا لبناء المفاهيم و التصورات[9] .

فعلى الدارس وفق هذا المنظور أن يهتم برصد العلاقات الكامنة (الخفية) في الخطاب[10] .

_ أمّا بالنسبة للعالم " فان دايك " مؤسس نظرية لسانيات الخطاب التي أعلن عن أسسها في كتابه " النّص والسياق " فقد بيّن أنّ التماسك الدلالي وسيلة من وسائل فهم النّص انطلاقا من العلاقات الضمنية الموجودة فيه ، و التي لا تدرك إلاّ من خلال السياق المقامي ، أي أنّه ربط الجانب الدلالي بنظيره التداولي في تفسير طبيعة التماسك النّصي [11] .

_ وبالنسبة للعالمين " براون و يول " فقد بيّنا أنّ النصوص قد تفتقد كثيرا من الروابط النحوية و لكنّها في الوقت نفسه تتمتّع بسمة التماسك ، وهذا إذا أخذنا بعين الاعتبار الروابط المعنوية ، وهذه الفكرة ميّزت مقاربتهما النّصية الموسومة بتحليل الخطاب [12] .

ومهما يكن من الأمر ، فإنّ ظاهرة التماسك الدلالي ترتبط بمجموعة من الخصائص رغم كثرة مفاهيمها ، وتتمثل في :

_ التماسك الدلالي يرتبط بالبنية العميقة للنّصوص .

_ التماسك الدلالي يعتمد على التأويل المرتبط بالقارئ .

_ التماسك الدلالي له علاقة وطيدة بالسياق المقامي .

_ التماسك الدلالي يعتمد على المعرفة الخلفية للقارئ ، و التي تبرز قيمة الكم المعرفي الموجود لديه حتى يواجه أكبر عدد من النّصوص .

_ التماسك الدلالي يعمد فيه محلل الخطاب إلى ربط النّص بالعوامل الخارجية : علم النفس المعرفي ، الذكاء الاصطناعي ، علم الاجتماع وهذا بناء على رأي العالمين براون و يول ، إضافة إلى العلوم الأخرى : الفلسفة ، الجغرافيا ، التاريخ ، الأدب و نقده ..... .

_ التماسك الدلالي يربط العوامل اللغوية بالعوامل غير اللغوية حتى يتحقق هدف لسانيات النّص المرتكز على فكرة التداخل بين العلوم .

_ التماسك الدلالي ذو طبيعة تواصلية ، فهو يربط النّص بمبدعه و قارئه .

_ التماسك الدلالي يركز بالدرجة الأولى على دراسة الملفوظات الموجودة في الخطاب أي الاعتماد على اللغة المنطوقة التي تظهر الجانب التواصلي

بطريقة مباشرة ، وهذا خلافا لدي سوسير الذي جعل الكلام عنصرا ثانويا ، و تشومسكي الذي قام بإرجاء دراسته رغم توظيفه لمصطلح " الأداء الكلامي " [13] .

ب _ أهم آلياته :

وتتضح جليا عند فان دايك في كتابه" النّص و السياق" و براون ويول في كتابهما " تحليل الخطاب " ، ويمكن حصر أهمها في :

ب1 _ موضوع الخطاب :

و هو بمثابة البنية الدلالية التي تصبّ فيها متتاليات النّص [14] ، فباختزالها يتم الوصول إلى الجوهر الدلالي للنّص .

فلا يمكن للقارئ تأويل البنية العميقة لأي نص دون معرفة الفكرة الدلالية العامّة له ، و التي لا تتضح إلاّ بالتمعن في تراكيب النّص .

ب2 _ ترتيب الخطاب :

يحتوي كل خطاب على مجموعة من العلاقات الدلالية التي تؤدي إلى ترتيبه وبالتالي إلى تماسكه ، و من أهمها :

_ المجموعة ، المجموعة الفرعية ، العنصر .

_ الكبير ، الصغير .

_ الخارج ، الداخل .

_ المالك ، المملوك .

_ المتضمِن ، المتضمَّن .

ويرى فان دايك أنّ هذا الترتيب يخضع في كثير من الأحيان إلى قيود تداولية [15] .

ب3 _ العلاقة بين معاني الكلمات الواردة في الخطاب :

فالنّص من هذا المنظور عبارة عن حقول دلالية مترابطة فيما بينها مشكلة معجما نصّيا [16] .

ب4 _ التطابق الإحالي :

أي أنّ المتحدّث عنه في طرفي الجملة شيئا واحدا [17] ، فالعناصر المحيلة مختلفة أمّا العنصر المحال عليه هو شيء واحد (موضوع واحد) وخصوصا إذا كان يشير إلى موضوع الخطاب .

ب5 _ التفريض :

وهو مبدأ وحدة الموضوع و الغرض [18] ، و يتضح جليا في عنوان النّص أو الجملة الأولى فيه ، ويكون في مقاطع النّص الأخرى من خلال بعض التقنيات ، و التي من أهمها [19] :

_ تكرير الأسماء .

_ استعمال الضمائر المحيلة على موضوع معين .

_ تكرير جزء من الاسم .

_ ذكر الظروف الزمانية المتعلقة بالشيء .

_ ذكر الصفات و الأفعال المرتبطة بموضوع معين .

ب6 _ مبدأ التشابه :

كل نص يتشابه (يتداخل) في أفكاره مع نصوص أخرى ، فعلى القارئ النموذجي أن تكون له معرفة خلفية أثناء تأويله لأي خطاب كان.

كما أنّ المبدع ينتج نصّه انطلاقا من تداخل أفكاره فيما بينها ، أو تداخلها مع أفكار غيره [20] .

ب7 _ العلاقات الدلالية : ومن أهمها :

_ الإجمال / التفصيل : تسهم هذه العلاقة في ترابط مقاطع النّص فيما بينها ، عن طريق استمرار دلالة معينة في المقاطع اللاحقة . وهذا الترتيب الخاص بهذه الثنائية خاضع لقيد معياري ، و قد يخضع لقيد تداولي حين تغيير طرفي الثنائية السابقة فتصبح : التفصيل / الإجمال [21] .

_ المقارنة : و هي الإتيان بصورتين متناقضتين في السياق نفسه لتحقيق هدف ما ، و الوصول إلى دلالة واحدة [22] .

_ السببية : وهي الربط بين السبب و النتيجة دون أداة وصل .

_ الزمنية : يحتوي النّص على أزمنة متشابكة فيما بينها ، حيث ينتقل الكاتب من زمن إلى آخر حسب معيار الاستعمال ، فكل زمن له دلالة معينة ، فالماضي يدل على الاستذكار ، و المضارع يدل على الاستمرارية ، و المستقبل يدل على الاستشراف . هذا بالنسبة للزمن النحوي باعتباره زمنا داخليا . أمّا بالنسبة للزمن الخارجي فهو ينقسم إلى:

_ زمن الكتابة : خاص بالمبدع .

_ زمن القراءة : خاص بالقارئ [23] .

و التأمل لهذه الوسائل النّصية يجد أنّها تهتم بالبنية العميقة للنّص ، و التي يتم تأويلها من طرف القارئ ، ومع ذلك فهي لا تستغني عن الجانب البنوي للنّص . فالبنية و الدلالة وجهان لعملة واحدة (اللغة) .

ولا يكتمل التأويل الحقيقي للنّص إلاّ بربطه بالسياق المقامي .

3_ السياق المقامي (المقامية) :

ترتكز اللسانيات المعاصرة وخصوصا اللسانيات التداولية على أداة فعّالة في تحليلها للنّصوص و الخطابات الأدبية و هي السياق المقامي، هذا الجانب الذي كان مغيبا عند جل البنويين كونهم يراعون السياق اللغوي الذي يتلاءم مع البنية السطحية أكثر من البنية العميقة .

وهذا لا ينفي وجود إرهاصات متعددة حول فكرة المقام في التراث اللغوي العربي عند النحويين و البلاغيين ، و خير دليل على ذلك مبدأ مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، و المقولة الشهيرة " لكل مقام مقال " . لكن بظهور اللسانيات التداولية أصبحت هذه الفكرة نظرية تدعى بالنظرية المقامية ، وسعى أعلامها إلى إظهار مدى إسهام السياق المقامي في تماسك النّص الأدبي و من ثمّ تأويله .

أ _ مفهومه :

السياق المقامي مصطلح دلالي و تداولي ، يتضمن كل ما يحيط بالنّص من عوامل خارجية و ظروف و ملابسات ، و ما جعله يتّصف بأنّه سياق ملموس [24] ، و هنا يظهر الجانب العملي له (الإجرائي) .

و يرتبط السياق المقامي عند الوظيفيين بالوظيفة المرجعية التي تتمحور حول المرجع باعتباره الشيء الذي تحيل عليه العلامة اللسانية ، و قد يكون ماديا ملموسا أو متخيلا [25] .

ومن باب التعدد الاصطلاحي يطلق على السياق المقامي تسميات أخرى منّها : سياق الحال ، سياق الموقف ، سياق الاستعمال ، السياق الاجتماعي، السياق الخارجي ، سياق المناسبة ..... .

ورغم كثرة هذه الاصطلاحات ، إلاّ أنّها تشترك في خصيصة جوهرية تتمثّل في الجانب الاستعمالي للغة ، وعليه فمهمة الباحث حينئذ هي الكشف عن

الضوابط التي تسير استعمال اللغة التي تتغير بتغير المجتمعات و المجموعات اللغوية و هذا على حدّ تعبير اللغوي الأمريكي " دال هايمس " [26] .

ب خصائصه :

يتميّز السياق المقامي بمجموعة من المقوّمات ، تتمثّل عند " براون و يول " في :

المرسل ، المتلقي ، الزمان ، المكان ، وهي عوامل محيطة بموضوع الخطاب .

وهما يريان أنّ انسجام الخطاب يكون متضمنا في تأويله انطلاقا من خصائص السياق السابقة [27] .

وهذه المؤشرات السياقية كفيلة بخلق نوع من التفاعل بين النّص وقارئه ، و هي بمثابة ذخيرة يمكن أن تتضمن سبل فهمه و تأويله ، ويمكن تمثيلها بهذا الشكل [28] :

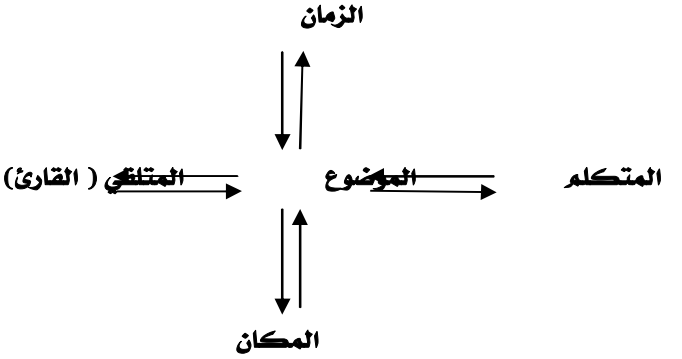

ولقد وسّع " هايمس " دائرة السياق المقامي بإدخال خصائص أخرى مثل [29]:

_ القناة : كيفية وقوع التواصل مشافهة أوكتابة أو إشارة .

_ النظام : الأسلوب اللغوي المستعمل ، و هذا ما ركّزت عليه النظرية التداولية التي تختص بالجانب الاستعمالي للغة .

_ شكل الرسالة : أي نمط النّص : حجاجي ، سردي ، وصفي ..... .

_ المفتاح : يتضمن التقويم العام للنّص .

_ الغرض : القصد من حدث التخاطب

_ الحضور : مستمعون آخرون حاضرون عند نشأة الخطاب

ج السياق المقامي و نظرية أفعال الكلام :

يرتبط السياق المقامي عند التداوليين ارتباطا وثيقا بالجانب الاستعمالي للغة انطلاقا من نظرية أفعال الكلام ، فالمتكلم عندما ينتج ملفوظا ما فهو في الوقت ذاته ينجز فعلا كلاميا يفهم من خلال السياق المقامي [30] .

ويتضح هذا جليا انطلاقا من تصنيف " سيرل " الأفعال الكلامية إلى [31] :

_ مباشرة : عندما يكون المعنى الحرفي للملفوظ مطابقا للمعنى الذي قصده المتكلم

_ غير مباشرة : عندما يكون المعنى الذي قصده المتكلم مختلفا عن المعنى الحرفي الملفوظ ، كأن يكون ظاهر القول إخبارا و باطنه يتضمن طلبا أو وعدا أو وعيدا أو تهكما ..... .

وحصر " سيرل " أهم المعاني المرتبطة بالأفعال الكلامية في الأصناف الآتية [32] :

_ الإخباريات (التأكيدات) : وفيها يعهد المتكلم إلى نقل خبر ما سواءا كان مؤكدا أم لا . فهذا الصنف يعتمد على الأقوال الوصفية .

_ التوجيهيات : وتتضمن معنى الطلب مثل الأمر ، النهي ، النداء ..... .

_ الالتزاميات : وتتضمن معنى القسم، الوعد ..... .

_ التعبيريات : وتتضمن المعاني النفسية المرتبطة بمجالات مختلفة كالشكر ، التهنئة ، الذم ، المواساة ..... .

_ الإعلاميات : وهي مرتبطة بجانب المعاملات مثل: البيع و الشراء ، الزواج و الطلاق ..... .

وبذلك فإنّ جوهر نظرية الأفعال الكلامية هو : لا يمكن تحديد معنى الملفوظ إلاّ إذا كان مقترنا بسياقه المقامي (الاستعمالي) .

4 العلاقة بين التماسك الدلالي و السياق المقامي :

تأتي علاقة التماسك الدلالي بالسياق المقامي من كون العديد من الملفوظات لا يمكن تحديد معناها بدقة إلاّ بمعرفة سياقها الذي وردت فيه، وانطلاقا من هذه الثنائية التلازمية فإنّه يمكن التمييز بين العديد من أنواع المعنى و المتمثلة في [33] .

أ المعنى الماهوي :

وهو يلخص القواعد الدلالية و التحديدات التي تؤسس العلاقات الموجودة في لغة ما بين العلامات و المفاهيم والأشياء الممثلة بهذه المفاهيم .

ب المعنى الإجرائي :

وهو يلخص علاقات وقواعد تركيبية موجودة في لغة ما ويثبت الكيفية التي تتآلف بها العلامات في التعبير ، وكيف أنّ هذه التعابير يمكن أن تتغير . والفرق المميّز بين المعنى الإجرائي و المعنى الماهوي هو أنّ الأول يتعلّق بالتركيب ، أمّا الثاني فيرتبط بالدلالة .

ج المعنى التعييني :

وهناك من يستعمله بمعنى المرجعية ، ويقصد بالقيمة التعيينية لوحدة معجمية العلاقة القائمة بين هذه الوحدة ، وما هو خارج عن النظام اللغوي من أشخاص و أماكن وخصائص و سيرورات و نشاطات .

د المعنى التضميني :

فالتضمين يمثل مختلف الاستعمالات التحويلية للكلمة أو العلامة ، هذه التحويلات تنقل الكلمة من مستوى الدرجة الأولى (التعيين) إلى مستوى الدرجة الثانية (التضمين) حيث يتوسع فيها المدلول متحررا من كل تقييد معجمي .

ومنه فالعلاقة بين التماسك الدلالي و السياق المقامي هي علاقة تكامل و تواشج ، وتتضح جليا في النقاط الآتية :

_ كلاهما يسهم في التماسك النّصي .

_ كلاهما مرتبط بمصطلح البنية ، حيث يتم الانطلاق منها للوصول إلى الدلالة ، و التي لا يتم التعمّق فيها إلاّ من خلال ربطها بالسياق المقامي ، و من هنا يتحقق الجانب الإجرائي للغة .

_ كلاهما يتعلّق بالجانب الفكري (المفهومي) حتى تتم عملية التأويل .

- كلاهما يربط العوامل اللغوية بنظيرتها غير اللغوية .

_ كلاهما يهتم بالجانب التواصلي بين الكاتب و القارئ حتى تتحقق الوظيفة التبليغية للغة التي هي مدار النظرية التداولية ، فهما مصطلحان وظيفيان انطلاقا من هذه الرؤية .

_ كلاهما مرتبط بنظرية الأفعال الكلامية التي تبيّن الدلالة الضمنية للملفوظ إذا اقترن بالسياق المقامي .

5 دراسة تطبيقية حول التماسك الدلالي و السياق المقامي في قصيدة " الحنين " للشاعر إبراهيم ناجي :

يعد الخطاب الشعري عالما متشعبا بمختلف الدلالات التي تحتاج إلى التأويل نظرا لما يحمله من إيحاءات و رموز ، فكل مكون لغوي فيه لصيق بالدلالة بدءا بالجانب الصوتي الذي يكسبه رونقا وجمالا لما يحويه من إيقاع موسيقي خارجي يتعلّق بالبحر و الوزن و القافية والروي ، و إيقاع داخلي يظهر مدى تشاكل الأصوات فيما بينها انطلاقا من ربطها بالدلالة أولا و المقام ثانيا ، و كذلك مدى تباينها . وبعدها يفتح المجال إلى دلالة الصيغ الصرفية و التراكيب النحوية و المعاني المعجمية للخطاب الشعري ، و بالتالي تتحقق الوظيفة الجمالية التي هي بيت القصيد بالنسبة للقارئ الذي يعمل على تأويل كل ما يتعلّق بالفضاء الشعري ، وخاصة إذا خاض غمار تجربة الشعر الحديث أو المعاصر .

ومن باب التمثيل ، تمّ اختيار قصيدة " الحنين " للشاعر إبراهيم ناجي المعروف بنزعته الرومانسية ذات البعد التأملي الإنساني . فالشعر " ليس مجرد تواصل إعلامي ، بل يتميّز بشفرته الجمالية الخاصة ، فلا بد من تحديد الغرض الأساسي في هذا التواصل ، و هو أنّه خلال عملية تلقي الرسالة الجمالية تتشكل لدى القارئ شفرة خاصّة ، مضافة إلى الشفرات اللغوية و الثقافية التي مازالت حيّة عند بثّ الرسالة "[34] .

ولذا وجب علينا بصفتنا قرّاء أن نعدّ العدّة لدراسة قصيدة " الحنين " للشاعر إبراهيم ناجي وذلك لاستخراج أكبر عدد ممكن من الدلالات الإيحائية المرتبطة بالبنية العميقة ، ولا يتسنى ذلك إلاّ بالتفاعل مع هذه القصيدة نظرا لما تحمله من رموز وشحنات وجدانية تفتح آفاقا كثيرة للتأويل ، أضف إلى ذلك أنّ دراسة معياري الدلالة و المقام تتّسم بنوع من الصعوبة إذا ما قورنت بمصطلح البنية .

_ فأول ما يلفت الانتباه أنّ قصيردة " الحنين " ذات الطابع الرمزي يعبر فيها الشاعر عن ألمه ومعاناته من جرّاء " الأمس " حيث يقول [35] :

أمسي يعذبني و يضنيني شوق طفى طغيان مجنون

فهذا البيت و إن كانت كلماته يسيرة ، إلاّ أنّ معانيه وافرة محمّلة بشحنات اليأس و العذاب و التيه ، وذلك من خلال الوحدات المعجمية الآتية : العذاب ، الضنى ، الشوق ، الطغيان ، الجنون . ويتنامى هذا الحقل المعجمي في أبيات القصيدة الأخرى ليصبح معجما شعريا خاصا بالمعاناة

القهرية التي أدّت بالشاعر إلى محاولة الخروج من هذا السجن الأبدي ، و نلمس ذلك من خلال قوله [36] :

أين الشفاء و لم يعد بيدي إلاّ أضاليل تداويني
أبغي الهدوء و لا هدوء و في صدري عباب غير مأمون

فحياة الشاعر مليئة بالأضاليل و اللاّهدوء و العباب الذي يثقل صدره ، و بالتالي حدوث الأزمة النفسية . ويتجسّد القالب الرمزي في هذه القصيدة انطلاقا من تشبيه " الحنين " باعتباره شيئا معنويا بالشخص الذي هو كائن حيّ حسّي .

فالحنين إذا كبر و زاد قد يتجسّم شخصا في نظر الشاعر إبراهيم ناجي ، حيث يقول [37] :

ويح الحنين وما يجرّعني من مرّه و يبيت يسقيني
ربيته طفلا بذلت له ما شاء من خفض ومن لين
فاليوم لما اشتدّ ساعده و ربا كنوّار البساتين
لم يرض غير شبيبتي و دمي زادا يعيش به ويضنيني

فالحنين في نظر الشاعر هو طفل اشتدّ عوده ليقاوم الشاعر ويجرّعه سمًا ناقعا حتى يضنيه (تخور قواه) .

فموضوع الخطاب في هذه القصيدة يحمل دلالات الألم و المرارة و الوحدة و التشتت ، و هو في الوقت نفسه يتلاءم مع جلّ موضوعات ديوان " وراء الغمام " الذي أخذت منه هذه القصيدة ، فكأنّ الشاعر يغوص في عالمه الداخلي ليعبّر عن آلامه و آماله .

ولعل رمز " الليل " أقوى شاهد على ذلك لأنّه بمثابة الزمن الذي يهيج فيه الحنين و يلازم الشاعر فيجعله يعيش صراعات عديدة ، حيث يقول [38] :

كم ليلة ليلاء لازمني لا يرتضي خلاً له دوني

فالحنين هو الصديق الحميم و الوحيد للشاعر يراوده في كل زمان و مكان ، و يبقى الليل مأوى لهما .

_ وقد وردت أبيات القصيدة وفق تسلسل منطقي ، حيث افتتحها الشاعر بالحديث عن أمسه وما يحمله من معاناة و عذاب ، و هذا ما ورد في البيتين الأولين ، و بعدها تمّ الانتقال إلى التعبير عن أثر الحنين في نفسية الشاعر من خلال ما يتركه من انفعالات مدمّرة حتى أصبح صدر الشاعر عبارة عن قضبان السجن الصلبة ، حيث يقول [39] :

يهتاج إن لجّ الحنين به و يئن فيه أنين مطعون
و يطل يضرب في أضالعه وكأنّها قضبان مسجون

أمّا بالنسبة لهذه الفكرة الجزئية (أثر الحنين) فهي محصورة من البيت الثالث إلى غاية البيت الثاني عشر .

وفي البيت الأخير نجد أنّ الشاعر و كأنّه استسلم لهذا الواقع المرّ مبتغيا الخروج من هذا المأزق حيث يقول (40) :

ويضمّنا الليل العظيم و ما كالليل مأوى للمساكين

ولقد أسهمت العديد من العلاقات الدلالية في ترتيب هذا الخطاب الشعري ، ومن أهمها :

_ الكبير (الأمس) ⟵ الصغير (الشوق)

_ المتضمّن (صدر الشاعر) ⟵ المتضمّن (العباب)

_ المالك (الشاعر المتكلم) ⟵ المملوك (الحنين)

_ الخارج (الأمس) ⟵ الداخل (الحنين)

_ المتضمّن (الليل) ⟵ المتضمّن (المساكين)

وهذه العلاقات الدلالية ينتجها عقل القارئ أثناء تأويله هذه القصيدة تبعا لمرجعيته الثقافية .

_ وما زاد في تماسك هذه القصيدة دلاليا هو الترابط الوطيد بين معاني وحداتها المعجمية ، و اجتماعها في شكل حقول دلالية من أهمها:

حقل المجردات : و يضم ألفاظ مثل : حنين ، شوق ، عذاب ، ضنى ، شفاء ، أضاليل ، هدوء ، خفض ، لين ، العظيم ..... .

حقل المحسوسات : مثل : صدر : أضالع ، قضبان ، نوّار البساتين ، ليل ، أمس ، وجه ، براكين ، مساكين ..... .

حقل الأحداث : مثل : يعذّب ، يضني، طغى ، تداوي ، أبغي ، يهتاج ، يئن ، يطل ، يضرب ..... . وهي في معظمها أفعال حركية لأنّ الشاعر حوّل المجرد إلى محسوس .

حقل الأسى و العذاب : مثل : عذاب ، ضنى ، أضاليل ، عباب ، يضني ، يئن ، يهتاج ، يضرب ، مرّ ، مجنون .....

حقل المكان : مثل : صدر، بستان ، مأوى ..... .

حقل الزمان : مثل : أمس ، ليل، اليوم ، ليلة ليلاء ، يبيت ..... .

وهذه الحقول الدلالية وغيرها تخدم البنية العميقة للقصيدة المتمثلة في الألم و المعاناة .

_ أضف إلى ذلك أنّ أغلب الإحالات الواردة في قصيدة " الحنين " تحيل على موضوع الخطاب (الحنين و أثره السلبي على نفسية الشاعر) أو ما يتعلق به كالأمس مثلا أو الشاعر في حد ذاته ، حيث عن لحمة دلالية ، ومن أمثلة ذلك:

_ ياء المتكلم أحالت على الشاعر إبراهيم ناجي إحالة مقامية ، مثل :

أمسي ، يعذبني ، يضنيني ، تداويني ، يسقيني ، شبيبتي ، دمي ، يفنيني ، يماشيني ، وجهي ..... .

_ الضمير المستتر" أنا " المتعلق بالشاعر المتكلم و يحيل عليه إحالة مقامية أيضا مثل : أبغي ، ألفي ، أرى .....

_ تاء المتكلم المتصلة تحيل على الشاعر إحالة مقامية أيضا مثل : ربيت ، بذلت ..... .
وهذه الإحالات المقامية هدفها ربط النّص بمبدعه ، كما أنّها تسهم في تماسكه بدرجة أقل .
_ كما أنّ هناك الكثير من الإحالات النّصية القبلية التي تحيل على الحنين بواسطة الضمائر المتصلة و المستترة مثل :
يجرّع ، مرّه ، يبيت ، يسقي ، ربيته ، له ، ساعده ، ربا ..... .
_ و كذلك بالنسبة للإحالات النّصية القبلية التي تحيل على الأمس بواسطة الضمير المستتر مثل : يعذب ، يضني ..... . وهذه الإحالات النصّية أدّت إلى تماسك القصيدة شكليا ثم دلاليا .
_ كما أدّت الإحالات النّصية المتعلقة بالحنين أو الأمس إلى اتضاح وحدة الموضوع و الغرض أو ما يعرف بمبدإ التغريض داخل النّص. ويظهر التغريض أيضا في العنوان و لو بصفة جزئية ، حيث ورد العنوان على شكل جملة اسمية حذف خبرها ليترك باب التأويل للقارئ حول طبيعة هذا الحنين :
الحنين ← مبتدأ) الخبر (محذوف) تأويله : مؤلم ، قاس ، شخص صلب ، يلازم الشخص ..... وغيرها من التأويلات المتعلقة بالبنية التركيبية للعنوان ، و التي تربطه بالنّص وسياقه المقامي .
أمّا من ناحية البنية الدلالية للعنوان ، فقد تم تحول دلالة الحنين المعنوية إلى حسّية (طفل جبّار) وهذا ما أدى إلى جمالية العنوان و النّص ككل .
كما استخدمت تقنيات أخرى للتغريض الخاص بالحنين منها :
_ **تكرير اللفظ** : وردت كلمة الحنين مرتين داخل القصيدة .
_ **ذكر الأفعال المرتبطة بالحنين** مثل : يئن ، يطل ، يضرب ، يجرّع ، يسقي ، يضني ..... .
_ **ذكر الظروف الزمانية المتعلقة بالحنين** مثل : الأمس ، الليل ، اليوم ..... .
_ كما أنّ تقاطع هذه القصيدة مع قصائد أخرى من ديوان " وراء الغمام " أسهم في تماسكها دلاليا ، ولا سيما أنّ جلّ موضوعات هذا الديوان تصبّ في معاني الحزن و الألم و الوحدة و العذاب و الضنى ..... ، و خير دليل على ذلك أنّ أوّل قصيدة في هذا الديوان المعنونة ب " المآب" يصف فيها الشاعر أحد رفاق صباه كيف أصبح عليلا محمولا بعد غربة طويلة أثّرت على نفسية الشاعر[41] ، إضافة إلى قصائد أخرى مثل : العودة ، الوداع ، رجوع الغريب ، وداع المريض ، ساعة التذكار ، أصوات الوحدة ..... .
وتتنامى هاته الدلالات حتى في الدواوين الأخرى للشاعر كديوان " ليالي القاهرة " الذي ضمّ قصائد مأساوية مثل:
أحلام سوداء ، في الظلام ، الميعاد الضائع ..... وكذلك مع ديوان الطائر الجريح ..... .

وتبقى هذه النزعة الرومانسية المليئة بالأحزان و الآلام مبثوثة عند الكثير من الشعراء المحدثين الآخرين كأبي القاسم الشابي في ديوانه " أغاني الحياة " على وجه الخصوص الذي عبّر فيه عن حسّه المرهف تجاه وطنه ، وكذلك نزعته التشاؤمية من جراء مرضه ووحدته .

_ كما أسهمت علاقة الإجمال / التفصيل في تماسك مقاطع هذه القصيدة ، و ترابط وحداتها المعجمية ، ومن أمثلة ذلك :

الأمس (إجمال) ← يعذب ، يضني (تفصيل)

لا هدوء (إجمال) ← عباب غير مأمون (تفصيل)

ربيته طفلا (إجمال) ← بذلت له ما شاء من خفض ومن لين (تفصيل)

يهتاج ، يئن ، يطل يضرب (تفصيل) ← ويح الحنين (إجمال)

_ كما أدّت الثنائيات الضدية في ترابط معاني القصيدة من باب علاقة المقارنة مثل :

أين الشفاء ← أضاليل تداويني

أبغي الهدوء ← لا هدوء

يعيش ← يفنيني

لين ← اشتد

_ أمّا بالنسبة للزمن النحوي المجسد في هذه القصيدة فتمثل في الزمن المضارع بالدرجة الأولى الذي يفيد الاستمرارية ، فأثر الحنين ظل يراود الشاعر في كل زمان و مكان ، ومن أمثلة ذلك : يعذب ، يضني ، لم يعد ، أبغي ، يهتاج ، يئن ، يخاطب ، يضم ..... .

وكذلك الزمن الماضي الدّال على الاستذكار و المعاناة من الحنين ، مثل : طغى ، لجّ ، اشتدّ ، ربا ، لازم ..... .

فحركية الزمن في هذه القصيدة انطلقت من المضارع مرورا إلى الماضي ورجوعا إلى المضارع ، ولعل هذا دال على اضطراب نفسية الشاعر .

_ ورغم تعدد الآليات المتعلقة بالتماسك الدلالي إلاّ أنّها تخدم موضوع الخطاب وبنيته العميقة المتمثلة في الألم و التحسّر . و كل هذا لا يتضح إلاّ من خلال السياق المقامي الذي تبرز خصائصه في هذا الخطاب الشعري كما يلي :

_ **المرسل** : الشاعر إبراهيم ناجي : من الشعراء الرومانسيين ، ينتمي إلى مدرسة أبولو الشعرية التي تركز على النزعة الإنسانية و الرمز و الطبيعة و المعاناة ، وهذا ما جسّده الشاعر للتعبير عن مشاعره الوجدانية [42].

_ **المتلقي** : كل القراء بصفة عامّة ، و أصحاب الألم و المعاناة بصفة خاصّة .

_ **الزمان** : غير محدّد ، و القصيدة تنتمي إلى ديوان " وراء الغمام " الذي صدر عام 1934 [43].

_ **المكان** : غير محدّد .

الموضوع : تعبير الشاعر عن معاناته من كثرة أحزانه و همومه .

_ **النظام** : استخدم الشاعر الأسلوب غير المباشر، واعتمد على الرمز أيضا حيث شبّه الحنين كأنّه شخص ، أي انتقال الدلالة المعنوية إلى حسّية .

_ **شكل الرسالة** : يتراوح النّص بين أسلوب الوصف المتعلق بالحنين مثل : مجنون ، غير مأمون ، ليلاء ، العظيم ..... و أسلوب السرد من خلال الأفعال المتعلقة بالحنين مثل : يجرّع ، يسقي ، ربا ، لازم ..... و المرتبطة بالأمس أيضا مثل : يعذب ، يضني .... .

_ **المفتاح** : يعالج هذا النّص حدثا مأساويا متعلقا بأحاسيس الشاعر ، و قد تمّ انتقاء ألفاظ معبّرة عن ذلك مثل : يعذب ، يضني ، مجنون ، مطعون ، ويح ..... .

_ **الغرض** : يهدف الشاعر من وراء كتابته لهذه القصيدة إلى إظهار ثقل همومه التي تراوده حتى يكون موضع إحساس من طرف الآخرين ، وتنفيسا لمكبوتاته أيضا .

وباجتماع هذه المؤشرات السياقية وغيرها يتحقق التماسك الدلالي للنّص .

_ كما تظهر أهمية السياق المقامي من خلال أفعال الكلام المستخدمة من طرف الشاعر و التي غلب عليها الاستعمال غير المباشر ، فهو يستخدم الدلالات الإيحائية للتعبير عن مراده . ومن أهمها :

_ أمسي يعذبني و يضنيني ← ظاهر العبارة إخبار و مضمونها تحسّر

_ أين الشفاء ← ظاهر العبارة استفهام و مضمونها تحسّر .

_ كم ليلة ليلاء ← ظاهر العبارة استفهام و مضمونها إخبار يفيد الكثرة

_ ألفي له همسا يخاطبني ← ظاهر العبارة إخبار و مضمونها تحسّر .

_ يهتاج إن لجّ الحنين ← ظاهر العبارة إخبار و مضمونها تحسّر .

_ ولم يعد بيدي إلاّ أضاليل تداويني ← ظاهر العبارة إخبار يفيد النفي و مضمونها تحسّر .

و نظرا لأنّ الشاعر يعالج قضية وجدانية متعلقة بالألم و الأسى ، فغلبت على القصيدة الأفعال الكلامية التعبيرية الدالة على التّحسر .

كما وردت بعض الأفعال الكلامية المباشرة التي تدل على الإخبار مثل :

أبغي الهدوء ، ربا كنوّار البساتين ، زادا يعيش به ..... .

_ وخلاصة القول : إنّ قصيدة " الحنين " للشاعر إبراهيم ناجي تتمتّع بتماسك ملفوظاتها انطلاقا من معياري الانسجام و السياق المقامي ، حيث يتسنّى للقارئ حينئذ تحديد أهم دلالاتها العميقة و ذلك بالاستناد إلى بنيتها السطحية المتّسقة . ولعل المنهج التداولي هو أفضل المناهج التي تسعى إلى الربط بين الدلالة و المقام كرد فعل على المنهج البنوي الذي بقي يدور في فلك الشكل على حساب الدلالة أضف إلى ذلك أنّ هذين المعيارين النّصيين مرتبطان بكافة المعايير النّصية الأخرى ، وخصوصا قصديّة المتكلم وتقبليّة المتلقي إذ هما

بمثابة قطبي رحى النظرية التداولية ، فتحديد الأفعال الكلامية المتضمّنة في الملفوظات لا يعرف إلاّ بمحاولة البحث عن عنصر القصديّة الذي يحدّده المقام ، وبالتالي يتقبلها المتلقي ويقوم بتأويلها على أساس معرفته الخلفية و لاسيما في الخطاب الشعري .

الهوامش :

(1) جيليون براون ، جورج يول ، تحليل الخطاب ، تر : محمد لطفي الزليطني ، منير التريكي ، الرياض ، دط، 1997 ،ص : 30.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، ط:1 2005 ، ص: 16، 17 .

(3) خليفة بوجادي ، في اللسانيات التتداولية _ مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة ، الجزائر، ط: 1 ، 2009 ، ص :64 .

(4) يدل مصطلح المحايثة على دراسة اللغة بمعزل عن المؤثرات الخارجية . أحمد مومن ، اللسانيات النشأة و التطور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ط:3 ، 2007 ، ص: 165 .

(5) محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ط:1 ،1991، ص:13 .

(6) إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد ، مدخل إلى علم لغة النص _ تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند و ولفجانج دريسلر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط:2 1999 ، ص:11 ،12 .

(7) نواري سعودي أبو زيد ، الدليل النظري في علم الدلالة، دار الهدى ، الجزائر ، ط: 1 ، 2007 ،ص: 27 .

(8) روبرت دي بوجراند ، النص و الخطاب و الإجراء ، تر : تمّام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط: 1 ، 1998 ، ص: 103 .

(9) نعمان بوقرة ، مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري ، علم الكتب الحديث ، الأردن ، ط: 1 ،2008 ، ص:51 .

(10) محمد خطابي ، لسانيات النص ، ص: 32 .

(11) فان دايك ، النص و السياق ، استقصاء البحث في الخطالب الدلالي و التداولي ، تر : عبد القادر قانيني ، افريقيا الشرق ، بيروت ، لبنان ، المغرب ، دط، 2000 ، ص :18 .

(12) براون و يول ، يحليل الخطاب ، ص:38 .

(13) خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ في اللسانيات ، دار القصبة ، الجزائر ، ط:2 ، 2006 ، ص:157.

(14) محمد خطابي ، لسانيات النص ، ص: 180 .

(15) فان دايك ، النص و السياق ، ص: 154 .

(16) خليل ابن ياسر البطاشي ، الترابط النّصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ، دار جرير، عمان ، الأردن ، ط: 1 ،2009 ،ص:154 .

(17) خليل ابن ياسر البطاشي ، المرجع نفسه ، ص:155 .

(18) محمد الشاوش ، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس نحو النص ، ج2 ،المؤسسة

العربية للتوزيع ، تونس ، ط:1 ، 2001 ، ص:173 .

(19) محمد خطابي، لسانيات النص ، ص: 60 .

(20) محمد خطابي ، المرجع نفسه ، ص:58 .

(21) محمد خطابي ، المرجع نفسه ، ص: 189، 269 .

(22) خليل ابن ياسر البطاشي ، الترابط النّصي ، ص:79 .

(23) خليل ابن ياسر البطاشي ، المرجع نفسه ، ص: 77 و علي آيت أوشان ، السياق و النص الشعري _ من البنية إلى القراءة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط:1 ، 2000 ، ص:157، 158 .

(24) محمد الشاوش ، أصول تحليل الخطاب ، ج:1 ،ص: 159 .

(25) علي آيت أوشان ، السياق و النص الشعري ص: 46 .

(26) خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ في اللسانيات ، ص:174 .

(27) محمد خطابي، لسانيات النص ، ص: 52.

(28) علي آيت أوشان ، السياق و النص الشعري ص:139 .

(29) محمد خطابي، لسانيات النص ، ص: 53.

(30) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد ، ليبيا ، ط:1 ، 2004 ، ص: 74 .

(31) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعلصر ، دار المعرفة الجامعية ، الأزاريطة ، ط:1 ،2002 ، ص:50 ، 51 .

(32) محمود أحمد نحلة، المرجع نفسه ، ص : 49 ، 50 .

(33) علي آيت أوشان ، السياق و النص الشعري ،ص:39 ،41 .

(34) صلاح فضل ، نبرات الخطاب الشعري ،دار قباء ، القاهرة ،دط، 1998 ،ص:21 .

(35) إبراهيم ناجي ، الديوان ، وراء الغمام ، دار العودة ، بيروت ،دط ،1986 ، ص: 16

(36) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص:16 .

(37) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص:16 .

(38) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص:16 .

(39) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص:16 .

(40) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص:16 .

(41) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص:08.

(42) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص:337 ومابعدها .

(43) إبراهيم ناجي ، المصدر نفسه ، ص: 337 ومابعدها.